مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة

العدد الثامن
1991 م.

عميد المستشرقين الايطاليين

ليوني كاتياني

Leone Caetani

ترجمة لحياته وعرض لكتابه (دراسات في تاريخ الشرق)

الأستاذ علي الصادق حسنين

شكلت العراقة والثراء والجبروت والعنف في أوروبا قديماً الامتيازات التي كان يسيطر بها الأمراء والنبلاء على من دونهم من رعايا وأتباع. أما الآن فقد تغيرت الأوضاع في ظل الأنظمة السياسية والاجتماعية الحديثة إذ لم يعد للطبقية وما شاكلها من اعتبارات وجود وأصبح يدرك عامة الناس وخاصتهم أن ليس للمرء أن يفخر إلا بما يقدمه من علم أو عمل نافع خدمة للحضارة ولمجتمعه ولسائر بني جنسه.

وممن جمعوا بين فضيلتي المجد القديم والمجد الحديث فاعتبر عصامياً عظامياً المستشرق دوق ليوني كايتاني، أمير تئانو (Teano)، الذي أصبح - بعد وفاة أبيه - دوق سيرمونيتا (Sermoneta).

إنه سليل إحدى الأسر الرومانية النبيلة التي يرجع تاريخها إلى زهاء ألف سنة وكانت في وقت من الأوقات سيدة مدينة غائيتا (Gaeta) ومنها انحدر رجال خدموا

أمتهم في مختلف العصور وشتى المنازع برز من بينهم أمهات 17 كـردينالاً وحبـراء أعـظمان تمثـلا في البابـا جيـلاسيـوس الثـاني (Gelasius II) ((1119/1118) والبـابـا بونيفاسيوس الثامن (Bonifacius VIII) (1303/1294).

كان والده دوق أونوراطو متضلعاً في علم الآثار وفي الدراسات الدانتية وشغل سنة 1896 منصب وزير الشؤون الخارجية في الحكـومة التي شكلهـا دي روديني في أعقـاب استقالـة وزارة كريسبي نتيجـة لهزيمـة القوات الإيـطالية في معـركة عـدوة باثيوبيا. وتنحدر والدته من أحد البيوتات الإنكليزية العريقـة النسب وكان لهـا تأثيـر عليه إذ كثيراً ما كان يبدي إعجابه بالمؤسسات السياسيـة الـديمـقـراطيـة وبمظاهـر الحياة الثقافية البريطانية.

إن قصر كايتاني في روما كان كعبة القصاد من أهل العلم والأدب والفن وكبار رجال المال والأعمال وكثيراً ما كانت تعقد في رحابه شتى الندوات العلميـة والأدبية والفكرية وقلما كان يقـدم إلى عاصمـة البلاد عـالم كبير أو أديب شهيـر ولم يقم آل كايتاني باستضافته.

ولـد الدوق ليـوني كايتـاني سنة 1869 في رومـا حيث نشأ وتـرعرع في عهـدة مربية ألمانية كان لها الفضل في اتقانة لغتها وبالمدينة ذاتها أتم مراحل دراسته حتى تخرج في سنة 1891 من كلية الآداب.

وفضلاً عن إلمامه ببعض الألسن الأجنبية الحية الأخرى كان له بطبيعة الحال المام كاف باللاتينية والإغريقية القديمة مع العلم بأنّهُ قبل بلوغه الخامسة عشـرة من عمره ـ أخذ يدرس ـ بدون معلم ـ العربية والفارسية والتركية والعبرية والسانسكريتية وبعض اللغات السامية المقارنة.

تزوج هذا العـالم النبيل الأميـرة فيتوريـا كولـونّا التي كـانت من أجمل بنـات الطبقة الأرسطوقراطيـة وحظيت بمنصب «الـوصيفة الأولى» في بـلاط عاهـل البلاد زمنئذ الملك فيتوريو ايمانويلي الثالث.

وكان منذ صباه قراء لمؤلفات الرحالة الأوروبيين وللكتب التي تتنـاول تاريـخ وجغـرافيا القـرون القديمـة والوسيـطة وكان لا ينفـك يستحضر في ذهنـه صوراً عن

الشرق القصي عنه إذ كان يرى فيه مستودعاً للعجائب والغرائب التي كانت تثير في نفسه توقا وشوقا إلى الاضطلاع في يوم قريب بمغامرة اقتحام أسواره واستكشاف أسراره علماً بأنه سار على سنة بعض أمراء الغرب فلم تبطره زينة الحياة ولم يستهوه المال ولا الجاه ولا المجد التليد متنكباً عن الرفاهية.

إنما يعود تبحره في علم الاستشراق إلى جهده الذاتي واجتهاده الشخصي وربما ورث ولوعه بالشرق عن جد أبيه الكونت فينتشيسلاو ارجيفوسكي، ذلك المستشرق المتضلع والرحالة المغامر البولندي الذي كان خبيراً وتاجراً بالخيول العربية الأصيلة والذي اشترك سنة 1809 مع البارون فون هامّر في تأسيس مجلة (مناجم الشرق) التي كانت أول دورية استشراقية دولية تصدر في العاصمة النمسوية فيينّا.

فبعد أن درس الشرق نظرياً على الكتب صمم كايتاني على دراسته عن كثب بالترحال إلى ربوع الأقطار الإسلامية خاصة. فزار كلا من مصر وفلسطين وسوريا والعراق وتركيا وإيران والهند والجزائر وتونس ومر بطرابلس مرور الكرام مع العلم بأنه زار أرض الكنانة وفلسطين وسوريا أكثر من مرة وعمد في إحدى زياراته لها إلى الاطلاع على مواقع معارك الفتوحات العربية الأولى خارج جزيرة العرب لغرض دراستها سيما معركة اليرموك التي كانت المعركة الفاصلة بين العرب والروم.

ولا مناص من الاستطراد إلى القول بأن هذا العالم الدؤوب كان في أثناء رحلاته لا يألو جهداً ولا مالاً في سبيل اقتناء الكتب واستنساخ وتصوير المخطوطات العربية وغيرها مما يمت لتاريخ العرب والإسلام بصلة بحيث كَوَّن مكتبة ضخمة ضمت خير مقتنيات مكتبات الشرق والغرب في الموضوع المذكور حتى قيل إنَّ من رآها فكأنما زار تلكم المكاتب.

وقد دوَّنَ جل وقائع هذه الزيارات وعمل على طبعها ونشرها في نطاق ضيق جداً وذلك في سنة 1892 وكان من شأن ترحاله أن هيأ له التمكن من معرفة تاريخ الإسلام معرفة دقيقة شاملة: الأمر الذي زاد من شدة ولوعه به وحفزه إلى التفكير بجد في تأليف عمل تاريخي فريد فبهمته الشماء استسهل ركوب الصعاب إلى أن

نـال مبتغاه وحقق مـراده بتصنيف ما اختـار له عنـوان «حوليـات الإسلام» (Ann Ali Dell' Islam).

لقد عكف نحو عشرين سنة على إعداد وإدارة وتمويـل هذا الإنجـاز العلمي الهائل الذي سهر هو وحده على تأليف الجزء الأول منه وأهداه إلى شريكة حياتـه. وقد تولى النـاشر أولـريكو هـوبلي إصداره في مـدينة ميـلانو في 1905. وحين اطلع بعض زملائه المستشرقين ـ نحو غويدي ونـولديكـه ولامّان ـ على أولى ثمـار جهده أعجبوا بها أيّما إعجاب وأكبـروها ولم يلبثـوا أن أعربـوا له عن استعـدادهم للتعاون معه على مواصلة هذا العمل العظيم فرحب هو بذلك.

هذا وقد واصل كايتـاني ـ على فترات ـ إصـدار الحوليـات تباعـاً ولم يتوقف إلا عنـد اندلاع نيـران الحرب العـالمية الأولى إذ لبى نـداء الوطن متـطوعاً كضـابط بسلاح المدفعية فتوجه إلى ساحة الوغى. ولما وضعت الحرب أوزارها كانت سبعة فقط الأجزاء الصادرة وبحلول سنة 1926 ارتفع عددها إلى عشـرة منطويـة على سرد الأحداث لغاية السنة الأربعين للهجـرة التي شهدت مقتـل رابع الخلفـاء الراشـدين الإمام علي كرم الله وجهه.

ولم يـطبع دوق ليـوني من الأجـزاء المـذكـورة عـدا مـائتين وخمسين نسخـة تجريبية مقتصراً على توزيعها على المجامـع العلمية في بـلاده وفي العالم الغـربي وعلى بعض زمـلائه وأصـدقائـه من العلماء فحسب. وقـد جعل شعـاره فيها ـ كمـا يخبرنا المرحوم الأستاذ محمد كرد علي ـ قول الشاعر العربي:

كفـافُ عيش كفـاني ذلَّ مسئلة وخدمةُ العلم حتى ينقضي عمري

إنه يقول ذلك وثروته وثروة أبيـه كانت ـ فيمـا يروى ـ تقـدر إذاك بمئة مليـون ليرة ناهيك عن ثروة حليلته الأميرة!

ومن الجدير بالذكر أنه استعان في عمله الجبار ببعض المترجمين أيضاً وأنـه أورد فيـه ترجمـة النصوص العـربية التي استشهـد بها محللاً إيـاهـا تحليـلاً نقـديـاً ومستعرضاً أصول نشأة الإسلام.

وبالنظر إلى تطرفه في النقد قد أنكر وجحد صحة جل الأحاديث النبوية الشريفة المتعلقة بمقتبل حياة الرسول الأعظم ﷺ، كما حط من تأثير العامل الديني في الفتوحات العربية التي رأى فيها مجرد نزوح تلقائي راجع في الغالب إلى إصابة جزيرة العرب بجدب تدريجي، وربما مثل هذا النزوح - في نظره - المرحلة الأخيرة من الهجرات الساميّة التي انطلقت كلها من الجزيرة سالفة الذكر، وكثيراً ما قوبل هذا الادعاء الجريء بالرفض إلا أنه أثر مع كل ذلك تأثيراً كبيراً في دارسي التاريخ الإسلامي القديم.

وتقديراً لعمله الجبّار قد منحه المجمع العلمي الوطني الإيطالي سنة 1908 جائزته المتمثلة في مبلغ نقدي قدره عشرة آلاف ليرة.

- وعلى أية حال فقد نال عمله الجبار هذا الاستحسان والتقدير واستحق هو عنه لقب «أعظم مؤرخي الإسلام في أوروبا». وقد أوردت صحيفة «ذي تايمز» اللندنية في ملحقها الأدبي رأيَ أحد النقاد بعد استعراضه للجزئين الأول والثاني من حوليات الإسلام إذ قال: «قد يمكن أن يبدو غريباً لبعض القراء أن إيطاليا وليس المانيا هي التي يجب أن تنتج تاريخاً للشرق الإسلامي بالضخامة التي انطوت عليها الحوليات. إن التقدير الذي يضمره كايتاني لشخص النبي ﷺ لدرجة الإعجاب العميق يقوم على أساس كمال دهائه كرجل دولة وكدبلوماسي أكثر منه كإنسان يتقد حماساً دينياً.

وردًّا على من كانوا يقدحون في الرسول الكريم ﷺ، قال كايتاني في محاضرة ألقاها في عام 1910: «إن حملة التشهير التي ظلت قائمة منذ قرون طويلة قد أسفرت عن نتائجها السلبية وباستثناء قلة قليلة من العلماء فإن العالم المسيحي كله ما انفكت تسيطر عليه الاعتقادات القديمة نفسها».

واقتناعاً منه بأن العمل الطموح الذي باشره يستحيل عليه إنهاؤه ارتأى أنه من اللازم أن يمهد السبيل لمن يستلم هذه الأمانة من بعده وأن يستفيد جميع طلاب وعلماء الاستشراق، من كنوز مكتبته النفيسة فأنشأ مؤسسة لتنشيط الأبحاث حول تاريخ الإسلام وحضارته وجعل مكتبته الخاصة مكتبة عامة تابعة للمؤسسة المشار

إليها آنفاً والتي يمكن تعريب اسمها كما يلي: «المؤسسة الكايتانية للدراسات الإسلامية». ثم ألحقت هذه المؤسسة بأقدم المجامع العلمية الإيطالية في روما. إنه مجمع «لينشاي» (Lincei) وهذه اللفظة في الإيطالية صفة مشتقة من الاسم (Lince) أي الفهد، ذاك السبع السنوري الحاد البصر، الذي اتخذت صورته شعاراً للمجمع منذ تأسيسه في القرن السابع عشر للميلاد وذلك للإشارة إلى حذاقة منتسبيه من العلماء الذين كان دوق ليوني واحداً منهم.

وفي كتيب أعده الأستاذ فرانتشيسكو غابرييلي، أمين مكتبة المجمع العلمي الوطني اللينشائي، ورد حرفياً ما يلي: «فعلى كل سائح أو طالب من أبناء الشرق يدخل دار الحكمة الكايتانية أن يشكر بصميم قلبه مؤسسها الكريم الذي لم يكن عمله عمل علّامةٍ فقط بل عمل حكيم تمنى طول عمره تفاهم الشرق والغرب وتعاونهما في سبيل الحضارة والتمدن. ومن المعروف أن لا محبة بلا تعارف فلير الشرق في هذه المؤسسة الخاصة بدرسه المقتبسة شرارة من نوره القديم الدلالة القاطعة على حبنا الخالص لماضيه الجليل وحاضره المتمنى له أكمل الفلاح والنجاح».

ـ لقد أبدع دوق ليوني كايتاني منهجاً جديداً في مجال الدراسات الإسلامية إذ أخذ ينقل ـ على نحو واف ـ الآراء المقتبسة من كل النصوص العربية الرئيسة ويورد ـ بقدر الإمكان ـ كل ما يقابلها من آراء مستقاة من مراجع غير عربية. وفي بعض الحالات كان يشير إلى ما كتبه النقاد الأوروبيون أيضاً بحيث اكتسى عمله المرجعي هذا قيمة كبيرة بالنسبة لتناول مسألة معينة من المسائل الإسلامية. بيد أن المستشرقين الأوروبيين حين كتابتهم عن الأحداث التاريخية الإسلامية كانوا قبلئذ يكتفون بالاستشهاد بالآراء الواردة في عدد قليل من المصادر العربية مضيفين إليها تعليقاتهم الخاصة.

ـ ويلي «حوليات الإسلام» في الأهمية مؤلفه المسمى «معجم الاعلام العربية» «Onomasticon Arabichm» الذي كان محاولة عملاقة لإعطاء نبذة وجيزة عن بعض الشخصيات العربية وعن الأماكن الواردة بالمراجع الرئيسة المنشورة وغير المنشورة للتاريخ الإسلامي وكان هذا العمل بالتعاون مع المستعرب الإيطالي

جوسيبي غابرييلي (Giuseppe Gabrieli).

وصدر في روما بدون تاريخ.

وأسوة بأعماله الأخرى كان التخطيط لهذا المؤلف متسماً بالضخامة ولكن لم يصدر منه عدا جزئين حتى الاسم «عبد الله» الذي يبدأ في الإيطالية بالحرف « A » نظراً لخلوها من حرف «ع». وثمة كناش يحوي أكثر من مائتي ألف ملاحظة ومسودة ما زالت تنتظر التحرير في صيغتها النهائية مع العلم بأن بعض أعماله الثانوية جاءت صغيرة في حجمها غنية في محتواها.

وبالإضافة إلى ذلك كانت لهذا العلامة مؤلفات أخرى من أهمها:

- كتاب بعنوان «ضبط تواريخي للأحداث الإسلامية» (Chronographia Islamic) رصد فيه تواريخ الأحداث التي شهدها الإسلام منذ السنة الأولى حتى سنة 132 للهجرة ورتبها ترتيباً مواكباً لتسلسلها الزمني.

كان صدور هذا الكتاب بمدينة باريس في سنة 1912.

- كتاب بعنوان: «ضبط تواريخي عام لأحداث الحوض المتوسطي والشرق الإسلامي» «Cronografia Generale Del Bacino Mediterraneo E dell' Oriente Musulmano».

وهو عمل لم يكتمل تناول فيه بصورة عامة تواريخ الأحداث التي وقعت في حوض البحر الأبيض المتوسط والشرق الإسلامي في الفترة الممتدة من سنة 133 إلى سنة 144 للهجرة.

صدر في روما سنة 1923.

- تجربة معجم بيبلوغرافي إيطالي (Dizionario Bibliocrafieo Italiano) صدر في روما سنة 1924.

هذا وقد عمد ليوني كايتاني إلى تطوير بعض أطروحاته التاريخية في صورة أجزاء كان عنوانها العام «Studi Di Storia Orientale» أي دراسات في تاريخ الشرق صدر منها الجزء الأول والجزء الثالث في مدينة ميلانو سنتي 1911 و 1914 على التوالي وكان ناشرهما أولريكو هوبلي.

يتضمن الجزء الأول الفصول الآتي بيانها:

الفصل الأول: الشرق والغرب ـ الإسلام والمسيحية.

الفصل الثاني: جزيرة العرب في عصر ما قبل التاريخ وتزايد جفاف الأرض ـ نظرة إجمالية على الهجرات الكبيرة للأمم السامية بالنسبة إلى جزيرة العرب في الجاهلية ـ جزيرة العرب في العصور القديمة وأهم الأحداث التاريخية التي شهدتها.

الفصل الثالث: الجزيرة العربية وعرب عصور التأريخ ـ سيكولوجية الانتصارات الإسلامية العظيمة.

هذا وأرى من المناسب أن أنقل فيما يلي أهم ما كتبه كايتاني في مقدمة هذا الجزء: «إن الهدف من كتب «دراسات في تاريخ الشرق» هو تبسيط ثمرة بعض البحوث الحديثة في ذلك المجال الدراسي الرحيب الذي وفرته لنا الحضارة الإسلامية في آسيا وإفريقيا ووضع هذه الثمرة في متناول الطبقة العديدة من المثقفين الأذكياء الذين يعدَمون الدراية بتاريخ الشرق وآدابه.

ففي هذا المضمار تنفرد المكتبة الإيطالية بشحها: صحيح أننا نملك أعمالاً ثقافية عميقة الفقه قدمها كإسهام قيم مستشرقونا النوابغ المشهورون أمثال غويدي (Guidi) واسكيابّاريلّي (Schiapparelli) ونالّينو (Nallino) وبيسّي (Pizzi) وغيرهم. ولكن فيما عدا دراستين موجزتين ذواتي قيمة فريدة كتبهما إيطالو بيتسي، الأستاذ المتقاعد المتخصص في دراسات اللغة والآداب الإيرانية، لا نملك منشورات إيطالية لتعميم دراسة الأحداث السياسية التي شهدها الإسلام. فكان على من أراد منا الاطلاع على ذلك أن يلجأ إلى ما كتبه المؤلفون الأجانب: الأمر الذي دفعني إلى سد هذا الفراغ ولو جُزئياً. فقد شرعت في إصدار هذه «الدراسات» التي هي صياغة معادة بتوسع لكثير من الفصول الموجزة الواردة في شتى أجزاء «حوليات الإسلام» التي ظللت أصدرها منذ سنة 1905 علماً بأن هذه «الحوليات» تشكل نوعاً ما مدونة للمادة التاريخية المتعلقة بالشرق الإسلامي وقد رُتِّبت المادة ذاتها حسب التسلسل الزمني وجرت دراستها دراسة نقدية تحليلية في منتهى الدقة.

فمن هـذا العمل الضخم ـ الـذي كرسته لأولي التخصص فقط ـ وبناء على نصيحة بعض الأصدقاء الراغبين في الاطلاع على زبدة بحوث دقيقة كثيـرة، قمت باستخلاص «الدراسات» المشار إليها في سهولة وبساطة عارضاً لـلأحداث بـأقصى صدق ووضوح بلا انحياز ولا إصدار أحكام مسبقة من شأنها أن تشوه الحقيقة.

لقد اكتفيت ببذل محـاولة دعـائية متـواضعة لصـالح ميـدان رائع من ميـادين البحث ظل ـ ويا للأسف ـ محل إهمال كبير في إيطاليا بحيث مـع سردي لأحـداث حصلت منذ ألف عام ونيف استهـدَفتُ إبراز شتى أوجـه ومختلف سبل قـرب ذلكم الشرق ـ خصوصاً منا نحن معشر الطليان ـ وإن بدا قصيـاً عنا. ولكيـلا أشوش على القراء قد ألغيت ذكر المراجـع التي سبق أن أوردتها في الحـوليات واقتصـرت على تلك التي اقتبست منها لا سيما في توسيع واستكمال هذا العمل.

هـذا وفي البحوث المقتضبـة الثلاثـة الواردة بهـذا الجزء قمت ـ على سبيـل التـوطئة للبحـوث الأخرى التي تليهـا ـ بمحاولـة وضـع بعض الخـطوط العـريضـة لمجمل تاريخي عـام مسلطاً الضوء في المقـام الأول على بعض العلائق المعنـوية بين الشرق والغرب وتطورها التاريخي.

إن الفصـل الأول عبـارة عن عـرض لمحـاضـرة ألقيت في المؤتمـر الـدولي للدراسات التاريخية المنعقد بمدينة برلين سنة 1908 وتناولت موضوعاً يكتسي أهمية فذة ويسترعي انتبـاه العلماء كـل يوم أكثـر فأكثـر، ألا وهو التـأثيرات ـ التي تبـادلها الشـرق والغرب فيمـا بينهما عبـر عشرات آلاف السنين الغـابرة ـ وأعمق أو أشمـل مدلول انطوى عليه الإسلام في تاريخ الشرق.

أما الفصل الثاني فيتناول بإسهاب قضيـة جديـدة نسبياً في مجـال الدراسـات التاريخية الشرقية. إنها قضية مـا زالت مختلفاً عليهـا بصورة جـزئية ولكنهـا أخذت تكتسب بسرعة مـزيداً من المؤيـدين المعتبرين، الا وهي جـدوبة الأرض وتـأثيرهـا على أحداث تاريخ البشرية وعلى هجرات الأمم.

وجـدير بـالملاحـظة كيف أن كتاباً مختلفين (المؤلف في الجـزء الثـاني من «الحوليات» الصادر سنة 1907 ودي مـورغان (De Morgan) سنـة 1908 وكينغ (King)

سنة 1909) ـ لأسباب متباينة وبطرق مستقلة ودون علم أحدهم بـالآخر ـ قـد توصلوا إلى النتيجة ذاتها، أي أن الأحداث التي شهدتها آسيا الأمامية ـ ابان عصور مـا قبل التأريخ وعصور التأريخ ـ جاءت مترابطة ترابطاً وثيقاً مع تقلب المناخ فيما بين نهاية العصر الجليدي والعصر الحديث.

فـلأجل تـوضيح هـذا الموضـوع المعقد اضـطررت في هذا الفصـل إلى أن أتنـاول أيضاً كثيـراً من نقاط تـاريخ آسيـا الأماميـة في القدم، وهي النقـاط التي مـا انفكت مـوضع خـلاف كبير بين العلمـاء وإنني لأشير بـذلك إلى التسلسـل الـزمني لأقـدم الحقب البابليـة وإلى التساؤل عمـا إذا سبق السّاميـون السومـريين في تعمير أرض بابل أم العكس.

هذا وخصوصـاً بعد أن صـدر ـ منذ وقت قـريب جداً ـ كتـاب «تاريـخ سومـر وأكـد» (History of Sumer and Akkad) لليونـارد وليام كينـغ ـ لنـدن ـ 1910 صـرت حريصاً على التصريح بأنني لم أعد أتمسك بما أوردتـه من معلومات متعلقـة بتعيين تـواريخ الأحـداث التي شهدتهـا بلاد بـابل حسب تسلسلهـا الـزمني حيث أن هـذا الموضوع خارج عن نطاق اختصاصي.

وحسبي الإصـرار على الفكـرة الأسـاسيـة المتمثلة في أن الأرض أخـذت تجدب تدريجياً منذ العصـر الجليدي فصـاعداً وأن جميـع الهجرات التي شهـدتها الأمم قـديماً كـانت راجعـة إلى هـذا السبب الأسـاسي الـذي أدى إلى تغييـر وجـه البسيطة تغييراً عميقاً وسوف يزيد من تغييـره في المستقبل وربَّما بلغ في يوم قصي جداً من الأيام تدمير كل نمط من أنماط الحياة فوق القشرة الأرضية.

إن تاريخ الإنسان غارق في أغوار القدم لدرجة يصعب حصرها: فقد أسفرت آخر الاكتشافـات لبقايـا بشريـة طي طبقات جيـولوجيـة عميقة في بقـاع مختلفة من العالم ـ معززة بأحدث ما خلص إليه علمـاء البيولـوجيا ـ أقـول أسفرت عمـا يكفي دليلاً قاطعـاً على أن الإنسان ظـل موجـوداً منذ آلاف وربمـا ملايين السنين: الأمـر الذي يُفْضِي إلى التأمـل في أمر وحيـد فريـد وهو أن الحقبـة التاريخيـة للخمسة أو الستة آلاف سنة الأخيرة لا تكاد تكون شيئاً، إنهـا بمثابـة برق خـاطف إزاء الماضي

المستحيل ضبطه وقياسه. بل إذا تأملنا في السرعة التي يطير بها الزمن وينقضي بها وجودنا التعيس انقضاء محزناً لوصلنا دونما صعوبة إلى الاقتناع بأن حتى أقصى الأحداث التاريخية المعروفة لدينا ـ كتأسيس الامبراطورية الرومانية مثلاً ـ تبدو كأنها أحداث وقعت بالأمس القريب لا تفصلنا عنها سوى فترة زمنية يسيرة بالمقارنة مع حقبة ماضينا الجيولوجي التي لا يحصرها حدّ ولا يحصيها عدّ.

أسيكون مستقبلنا عظيماً أسوة بأمم سابقة أم أن حالة الوعي التي نعيشها الآن تنبىء بنهاية عاجلة؟ أباكتمال تطورها وتمدنها تعد الإنسانية العدة لزوالها ـ قبل زوال شمسنا بوقت طويل ـ نتيجة لانهيار عصبي باطني وبسبب التضحية المتزايدة بالمستقبل في سبيل التمتع بالحاضر، وفق الميزة العظيمة التي تميز عصرنا وتميز الانحطاطات البشرية طرّاً؟

وفي الفصل الثالث حاولت وصف الملامح الأساسية للطبيعة العربية والأسباب التي جعلت من هذه الأمة ـ التي كادت تكون مجهولة حتى القرن الميلادي السابع ـ جعلت منها في مدة قصيرة من الزمن سادة العالم. فمن خلال هذا الفصل ندخل في صلب الموضوع ونمهد السبيل للمواضيع المراد طرقها في البحوث التالية.

هذا وسوف يتضمن الجزء الثاني من «دراسات في تاريخ الشرق» أعمالاً طريفة لم ترد في «الحوليات». إنها نقد جديد لديانة العرب في العصور الغابرة ومحاولة جديدة لشرح أصول العقيدة الإسلامية و ـ أخيراً ـ بحث حول منشأ شخصية النبي محمد ﷺ.

أما الجزء الثالث فيكاد يكون جاهزاً وسيصدر قريباً ـ ربما قبل ظهور الجزء الثاني ـ وينطوي على سرد للأحداث التي مرت بالرسول ﷺ حتى فتح جزيرة العرب.

وسوف يشكل الفتح الإسلامي لآسيا الأمامية وإفريقيا الشمالية مادة جزء رابع. ومن السابق لأوانه التحدث الآن عن أجزاء أخرى ما لم ير النور أولاً ما يقابلها من أجزاء «حوليات الإسلام» التي يتم استخلاص «الدراسات» منها.

وفي ختام هذه الكلمة الوجيزة لا يسعني إلا أن أعرب عن مشاعر المودة والعرفان بالجميل إلى صديقيّ ومعاونيّ الدكتور ج. غابرييلي (G. Gabrieli) أمين مكتبة الأكاديمية اللينشائية، والأستاذ س. بارجيليني (S. Bargellini)، الكاتب القصصي المتقاعد، اللذين عنيا بمراجعة جميع المسودات مدخلين عليها كثيراً من التصحيحات المفيدة القيمة». (انتهى كلام المؤلف).

ففي واقع الأمر أن الجزء الثاني ـ على حد علمي ـ لم يصدر قط ومن المفروض أنه يحوي الفصول الرابع والخامس والسادس. وكما تنبأ المؤلف، سبقه الجزء الثالث الذي جاء متضمناً للفصول التالية:

الفصل السابع: معارك الجهاد الأولى التي خاضها محمد ﷺ ضد الوثنية ببكة وأسباب هجرته إلى المدينة.

الفصل الثامن: الأحوال في يثرب قبل مجيء محمد ﷺ إليها.

الفصل التاسع: مطلع العهد الهجري والسنوات الخمس الأولى التي قضاها محمد ﷺ بالمدينة المنورة.

الفصل العاشر: السنوات الخمس الأخيرة من حياة محمد ﷺ ـ فتح مكة ـ وتأسيس الدولة الثيوقراطية بالمدينة.

الفصل الحادي عشر: محمد ﷺ الإنسان والنبي وراعي الأمم.

الفصل الثاني عشر: وفاة محمد ﷺ ـ مبايعة الخليفة الأول أبي بكر الصديق.

الفصل الثالث عشر: الخلافة في فجر الإسلام.

الفصل الرابع عشر: انتفاضة القبائل وفتح جزيرة العرب وحروب الردة.

ومما جاء في مقدمة هذا الجزء أن الدراسات الواردة به هي نسخة طبق الأصل من بعض فصول الجزئين الأول والثاني من «حوليات الإسلام» بعد أن أدخلت عليها كثير من التنقيحات في الصياغة.

ويوضح المؤلف أن انشغالاته المتعددة ومواصلة تصنيفه للحوليات وبعض الأمور العائلية الخطيرة والتزاماته السياسية وعوائق أخرى كان من شأنها جميعاً أن أخرت إنجاز وإصدار الجزء الثاني الذي تتناول فصوله ثلاثة مواضيع من الصعوبة بمكان، وأنه إذ قرر إتحاف القراء بالجزء الثالث ـ عملاً بنصيحة الناشر ـ يرجو صفحهم عنه إذا ما بدا لهم هذا العمل في بعض مواضعه أبتر خلواً من أية رابطة مباشرة بمادة الجزء الأول، معرباً عن أمله أن يتمكن ـ في غضون ما يزيد عن سنة واحدة بقليل ـ من سد هذا الفراغ المأسوف له.

هذا وكان تأليف الجزء الثالث قبل نحو سبع سنين من صدوره. وبعد هذه المدة قام كايتاني بمراجعة بعض المواضيع التي أوردها فيه سيما تلك المتعلقة بالمراحل الأولى من حياة سيد الكائنات ﷺ. إلا أن تدبره إياها قد أفضى إلى تغيير بعض آرائه وإلى صبغها بضرب من الشكوكية التاريخية كان أعظم حتى من قبول بعض التفاصيل المتعلقة بسيرة الرسول الكريم محمد ﷺ. ثم يردف هذا المستشرق فيقول: «ولكني أشعر ـ بصورة عامة ـ بأن في وسعي أن أؤكد اليوم ما كتبته قبل سبع سنوات خلت وأن أؤيد ـ باقتناع تام ـ التفسير التاريخي العام لظاهرة الإسلام في أول عهدها ـ كما جاء بسطه بهذا الجزء ـ علماً أنه يختلف كثيراً عن التفسير التقليدي المألوف الذي هو أكثر مراعاة للسنة وحتى للأسطورة الإسلامية. فما دامت العقيدة الجديدة ـ التي كانت تُحدِث في نفس «المصلح» العربي تهيجاً واضطراباً ـ ظاهرة شخصية ذاتية خصوصية، كانت لها كل مميزات المظهر الصادق العميق الذي ينم عن توق ديني غاية في الرفعة والسمو.

ولما صارت هذه العقيدة على اتصال بالعالم الخارجي وحاولت التوسع والانتشار والاستيلاء على النفوس، اكتست ـ بالعكس ولضرورة ملاءمة البيئة الاجتماعية المحيطة بها ـ طابعاً سياسياً ازداد على مر الأيام توطداً ورسوخاً. إن الهجرة إلى المدينة ـ التي حددت في الحقيقة بداية الإسلام في التاريخ ـ قد دلت على تأسيس إمارة سياسية ذات قاعدة دينية وبالتالي فإن تقدم قضية الإسلام في ربوع جزيرة العرب كان ـ في المقام الأول ـ أمراً سياسياً عسكرياً وفي هذا الثوب انطلق الإسلام إلى فتح اقطار الدنيا.

فقد جرت الفتوحات عبر سبل غير متوقعة واستهدفت الاستيلاء على جميع الخيرات التي يفضلها ويرغب فيها البشر المتعطشون للمتعة ولم تستهدف التبشير وانضمام عدو واحد إلى ركب الإسلام.

إن المسلمين الأوائل لم يدركوا بجلاء البون القائم بين الدين الذي كانوا يدينون به وديانة كل من النصارى واليهود خارج حدود جزيرة العرب. كان من المفترض أن يشكل أهل الكتاب المذكورون الثروة الهائلة للفاتحين وأن يعيشوا فقط لضمان ما كان يسعى إليه العرب الظافرون من سعادة ورفاه مادي في هذه الحياة الدنيا.

«وفي حقبة متأخرة فقط قامت حركة اجتماعية ـ لم يتنبه إليها ولم يُرِدها العرب، سادة آسيا الجدد ـ كان من شأنها أن حولت تيار التوسع السياسي إلى ثورة دينية أيضاً أدت إلى اهتداء آسيا وإفريقيا الشمالية إلى الملة الجديدة كما أدت إلى وسم الأخيرة ـ من بعدُ وإلى الأبد ـ بسمة دينية راسخة ظلت تميزها بحيث رفعت شأن الإسلام وبوّأته مرتبة الأديان العظمى في العالم وأكثرها انتشاراً وفعالية». (انتهى كلام المؤلف).

ثم يقول كايتاني إنه ضمّن هذا الجزء صورة منظورية ـ وأحياناً ـ أفقية لأهم ملامح سيرة النبي ﷺ من جانبها التاريخي، أو ـ على الأقل ـ من زاويتها المعرضة لضوء التاريخ وأن ذلك يعتبر أول بحث في السيرة يدوّنه أحد أبناء إيطاليا ويبنيه على أساس الرجوع المباشر إلى المصادر الأصلية.

ويختتم هذا المستشرق مقدمة كتابه قائلاً: «إن اسم النبي المكي، الذي يُجِلّه ويُصلّي عليه ـ كل يوم منذ اثني عشر قرناً ـ ملايين كثيرة من البشر المنتشرين بشتى أرجاء المعمورة ما زال يسطع اليوم كنار على علم مهيمناً على عقل أمة تربطها بإيطاليا الآن روابط وطيدة متينة. فمن المأمول أن هذا الاسم، المسمى به محمد ﷺ ـ الذي سبته الحضارة المسيحية حقبة مديدة من الزمن بدون أن تعرفه ـ من المأمول أن يهم الجماهير الإيطالية وأن يشوقها (ولو من خلال هذه الصفحات المجردة) إلى معرفة تاريخ طاقات كبيرة وألوان من الأقدام المنقطع النظير وحركات

أمميّة ضخمة ما برحنا نشاهد ـ على مقربة منا ـ آثارها جميعاً حتى وقتنا الراهن.

وإنني أرجو لعملي المتواضع ـ الذي بذلت فيه كل عناية واجتهاد ـ أن يشكل في أوساط جماهيرنا إسهاماً صغيراً لنشر معرفة الإسلام في إيطاليا: «إنه الإسهام الوحيد الذي أمكنني تقديمه في هذا الظرف التاريخي من حياتنا القومية». (ربما أراد كايتاني التلميح بذلك إلى خوض بلاده غمار الحرب الكونية الأولى فضلاً عن تورطها في حرب احتلال ليبيا).

هذا وكان الدوق ليوني كايتاني اشتراكياً نشيطاً وكانت له اهتمامات بشؤون السياسة الوطنية والدولية وقد انتخب عضواً بمجلس النواب لمدة أربع سنوات من 1909 إلى 1913.

إن أهم حدث شهدته هذه الفترة على الصعيد الوطني كانت الحرب الإيطالية التركية في ليبيا (1912/1911) التي سبقتها حملة دعائية صاخبة لتهيئة الرأي العام وحمله على الإيمان بسهولة المغامرة واعتبارها مجرد «نزهة عسكرية».

أما النائب كايتاني فقد حذر ـ في خطاب ألقاه بالبرلمان يوم 1911/6/7 ـ حذر من مغبة هذا الوهم المحفوف بالمخاطر للأسباب التالية:

1 ـ إن الحرب تتطلب أموالاً طائلة وتضحيات جسيمة بلا مردود. وقد وجه إذاك سؤالاً إلى جوليتي قائلاً: «لدينا وفرة من الأموال تسمح لنا بالتبذير بيد أنكم رفضتم منذ قليل تخصيص ستين ألف ليرة فقط لإنشاء معهد للدراسات الشرقية في القاهرة؟».

2 ـ إن الادعاء بخصوبة الأرض الليبية ليس سوى تلفيق خيالي للتحريض على مساندة فكرة الغزو.

3 ـ من شأن الاحتلال أن يثير حقد السنوسيين الذين هم بمثابة «فاتيكان إسلامي في الصحراء» وقد يفضي ذلك إلى خلق مزيد من التعقيد الذي يقلل من فرص التوصل إلى حلول سلمية.

ومن الأسباب الأخرى التي لم يبدها واقتصر على التلميح إليها في خطابه

تخوفه من أن المجازفة كانت أضخم من أن يقدر جنود بلاده على إنجازها بمفردهم ضد الأتراك الذين كانوا يمتازون بكفاءة عالية في فنون الحرب والقتال.

إن هذه ـ في نظره ـ هي الحقيقة التي يجب أن تؤخذ بالحسبان دون البحث عن أي ذريعة وهمية لا يرجى من ورائها طائل. ويعترف كايتاني بأن الجنود الأتراك أحسن جنود الدنيا لكونهم رجالاً لا يعبأون بألوان الحرمان ويعرفون كيف يضحون بالنفس والنفيس في سبيل الوطن والدين.

هذا وقد اتهم النائب ليوني كايتاني دولة الفاتيكان بالتحريض على الحرب بغية صرف الناس عن الخلافات السياسية والمشكلات الداخلية مع العلم بأن السنيور باتشيلّي، مدير بنك روما وشقيق الكردينال باتشيلي الذي تبوأ فيما بعد الكرسي الرسولي بوصفه البابا بيوس الثاني عشر، استطاع قبل الغزو أن يفتح فرعاً لمصرفه في طرابلس ولتوظيف مبلغ كبير من المال بهدف التغلغل الاقتصادي تمهيداً للاحتلال العسكري.

وفي يوم 1911/10/5 أعلنت إيطاليا الحرب على تركيا وفي 1912/2/23 جرى طرح مشروع قرار أمام مجلس النواب الإيطالي للمصادقة على غزو ليبيا الذي لم يكتمل ولم ينته إلا في سنة 1931 بعد استشهاد عمر المختار. غير أن كايتاني وثمانية وثلاثين نائباً اشتراكياً آخرين صوتوا ضد مشروع القرار المطروح. وَحَرِيٌّ بالملاحظة أن هذا الرجل ظل منذئذ هدفاً لحملة صحفية عنيفة حتى أن بعض الجرائد تطاولت عليه إذ كانت تكنية بالتركي الإيطالي ناشرة له رسماً ساخراً وعلى رأسه طربوش عثماني.

ومن المؤسف حقاً أن حياة هذا الرجل العظيم بعد أن كانت كلها سعادة ونعيماً انقلبت في فترة متأخرة شقاء وجحيماً وذلك لسببين رئيسين هما:

1 ـ الموقف المتشدد الذي ظلت تتخذه بعلته الأميرة فيتوريا من إسرافه في الإنفاق على مشاريعه العلمية إذ كانت تخشى تبديده لما تبقى من ثروته. فشاب حياتهما الزوجية وعلاقاتهما العاطفية ووشائجهما الروحية فتور فظيع دفع دوق ليوني إلى تحويل حبه إلى امرأة أخرى حال انتماؤه إلى المذهب الكاثوليكي دون الاقتران

بها رسمياً ما دامت زوجته الشرعية على قيد الحياة.

2 ـ ظهور النظام الفاشيستي في البلاد والقلق الذي اعترى الدوق كايتاني على إثر اغتيال النائب الاشتراكي جاكومو ماتّئوتّي في صيف عام 1924 فقرر الهجرة إلى كندا حيث عاش حيّاة أدبية هادئة إذ كان يقرأ كثيراً وربما يتناقش مع بعض الأصدقاء في شؤون العالم. ولكن قلمه قد جف فتوقف عن التأليف. إن ظروفه المستجدة جعلته ينسى الشرق الذي كرس لدراسته جل ثروته وربيع حياته. وفي ليلة عيد الميلاد من عام 1935 لفظ أنفاسه الأخيرة تاركاً وراءه أسرة صغيرة تَرثيه وتحزن على رحيله الأبدي.

وقبل وفاته ببضعة أشهر حين كانت حرب أثيوبيا وشيكة الاستعار كتب رسالة إلى أحد أصدقائه في روما من جملة ما قال فيها. «إنني أقرأ كثيراً وأدرك أن العالم اليوم يعج بما يثير الاهتمام بحيث قد يؤسف حقاً الرحيل (عنه) دون معرفة كيف يؤول كل ذلك إلى الانتهاء. وعندئذ سوف يأتي زمن تكترب فيه أفئدة أولئك الذين يحبون وطنهم حباً كائناً ما كان مبلغه».

المصادر والمراجع

1 - **Caetani Leone** - Studi di storia Orientale, vol. I, Ulrico Hoepli, Milano, 1911.
2 - **Caetani Leone** - Studi di Storia Orientale, vol. III, Ulrico Hoepli, Milano, 1914.
3 - **Gabrieli Giuseppe** - La Fondazione Caetani per gli Studi Musulmani, R. Accademia Nazionale dei Lincei- Fondazione Caetani, Roma, 1926.
4 - **Reyazul Hasan** - Prince Leone Caetani, a great Italian Orientalist (1869-1935)- Handard Islamicus, the Mandard Foundation quarterly Journal, Pakistan, vol. V/ Number 1/ Spring 1982.
5 - **Sansoni S.P.A.** - Dizionario Enciclopedico Universale, 2a Edizione, Sansoni, Firenze, 1967.
6 - **Trucco Giovanni** - Grande Dizionario Enciclopedico, vol. II, U.T.E.T., Torino, 1933.
7 - **Treccani Giovanni** - Enciclopedia Italiana Treccani, vol. III, Roma, 1938.
8 - **Vari Autori** - Come siamo andati in Libia, Libreria della Voce, Firenze, 1914.